وبالفعل، لم نتعوّد في تونس، مع الأسف، على فتح أبواب المشاركة أمام الباحثين الشبّان والمبتدئين في مثل هذه المواضيع، ودائماً ما تكون شروط المشاركة في الملتقيات والمؤتمرات مشدّدة تحت «تعلة» العلميّة والرفع من المستوى، وحتى في النقاشات مع الأساتذة داخل الكليّات والمعاهد، قليلاً ما تؤخذ آراؤنا بجديّة، لتكون منطلقاً لنقاش حقيقي وفعّال.

أريد أن آخذ مثال الورقة التي قمت بتقديمها في المؤتمر، لقد كنت متيقناً من أنَّ مستواها متواضع، إن لم نقل إنَّه ضعيف جداً، ولكن مع هذا تمّ قبولها، وقد تطوَّع أحد الأساتذة قبل المؤتمر لإصلاحها، وجعل صياغتها مقبولة إلى حدٍّ ما، لأنَّ صياغتي الأولى كانت كارثيّة. تمّ تثمين تجربتي في كتابة الورقة، ومُنِحتُ فرصة عرضها ونقاشها، بل ترأستُ إحدى الجلسات. لقد كان ارتباكي كبيراً، وزاد لدى ترؤسي الجلسة، لكنَّ الأساتذة المشرفين حرصوا على مرافقتي في كلّ خطواتي تلك وتشجيعي، حتى يهوّنوا عليّ، ويجعلوني أكثر أريحيّة.

لقد كان لهذا الاحتفاء بـ «مشروع باحث عربيّ شاب»، يأتي ليشارك في تقديم فيلم من أبرز ما قُدّم في المؤتمر، وليكتسب بين الباحثين شرعيّة وجوده وبداية انضمامه إلى الجماعة العلميّة، أثر عميق في نفسي، كان مزيجاً من الفرحة والثقة والذهول والخيبة. نعم، الخيبة حين أقارن هذه التجربة القصيرة والغنيّة بالتجربة الطويلة التي عرفتها داخل منظومة التعليم العالي التونسيّة، وعجزها عن إكسابنا نحن ـ الطلبة ـ الثقة والشرعيّة التي يبحث عنها كلّ مبتدئ على درب البحث.

بعد مؤتمر باريس عدنا إلى تونس، أليساندرو دياكو عاد للاستقرار هنا مرّة أخرى، وقد عملنا مع باقي الزملاء الذين حضروا المؤتمر (من تونس كنت المشارك الوحيد بالإضافة إلى طالبة هندسة صديقة لنا كانت قد ساهمت في إنتاج الفيلم وإخراجه) على تدوين الملاحظات التي تلقيناها خلال العرض والنقاش، بالإضافة إلى النصائح التي قدّمها لنا باحثون مهمّون في هذا المجال، مثل دوغلاس هاربر، وجون بيار دوران، وجويس صباغ، وبيار مايو.

وبعد عودتنا، عملنا على عرض الفيلم في حلقات عروض خاصّة ومصغّرة في بيت أليساندرو أو في بيتي وفي مركز ثقافي في مدينة الكاف، وذلك بهدف تلقي آراء مشاهدين من خارج الحقل السوسيولوجي. وقد مكّنتنا الملاحظات المختلفة التي تلقيناها من إنتاج النسخة النهائيّة للفيلم، والتي عرضناها لأوّل مرّة في المقهى الثقافي ليبرتي في لافايات بتونس العاصمة، وفتحنا إثرها باب النقاش. كما تمّ عرض النسخة النهائيّة نفسها خلال أيّام الأشرطة الوثائقيّة بجربة، وسيكون هدفنا المقبل إرسال هذه النسخة، والتي قد تعرف بعض التعديلات الأخرى، إلى مهرجانات الأفلام الوثائقيّة الدّوليّة للمشاركة في مسابقاتها.

مشاركتي في هذا الفيلم، جعلتني أعي حاجة علم الاجتماع اليوم إلى